العربية والإسلام بين الغابر والحاضر

الدكتور توفيق برو

استاذ التاريخ في كلية اللغات
(جامعة حلب)

لا يستطيع الباحث ان يدلي براي جازم في موضوع السببية بين الاسلام واللغة العربية ، بل يمكن ابداء ملاحظات منها ما هو في جانب الفكرة او ضدها .

ومما هو في جانبها :

ا ـ ان الاسلام ـ اثناء نشره ابان حركة الفتوح العربية في مختلف العصور ـ كان وسيلة احتكاك ولا شك . كان للاسلام دوره التاريخي ، ذلك ان الرغبة في نشره ، حتى يعم العالم ، كانت احد الاسباب في دفع العرب الى حركة الفتوح . وهنا تبدو الملازمة بين نشر الاسلام وانتشار اللغة العربية ، لان المسلمين الذين اخذوا على عاتقهم عبء الفتوح عرب ، دينهم عربي وقرءانهم عربي ، ورجال دولتهم عرب ، والدولة التي كونوها عربية اسلامية ، وتسنم الوظائف كان يقتضي معرفة اللغة العربية ، مما دعا الشعوب الاجنبية (الاعجمية) التي انضوت تحت الراية العربية الاسلامية الى تعلم اللغة العربية لكي يتاح لها الاسهام في خدمة الدولة . واكثر من ذلك فان الحركة العلمية التي شجعها العرب واخذوا على عاتقهم تنميتها قد اضطلع بها ـ في باديء الامر ـ الناس من اصل غير عربي اعتنقوا الاسلام وتعربوا . وهناك ايضا طقوس العبادة : فلكي يصبح الانسان مسلما صحيحا كان عليه ان يدرس القرءان ويتعلم آياته الكريمة ومختلف الادعية وسواها من العبارات الدينية التي تقال اثناء الصلاة وكلها عربية .

ب ـ مما لا شك فيه ان هناك جهودا كثيرة قد بذلت من قبل خلفاء المسلمين وقوادهم وولاتهم وتجارهم ومبشريهم في سبيل نشر الاسلام مع اتخاذ الطرق الناجعة الكفيلة باقبال الاقوام غير العربية على اعتناقه . وقد تبع ذلك حركة استعراب بين هذه الاقوام. انما لم تكن حركة الاستعراب بما يتناسب مع قوة اعتناق العقيدة الاسلامية وسعة انتشارها . ولم يكن من الضروري قط ان كل من يعتنق الاسلام يتكلم اللغة العربية بحيث يستعرب كليا او جزئيا بمعنى انه يتكلمها نوعا ما الى جانب لغته الاصلية .

الى هنا يظهر ان ثمة سببية بين الاسلام وانتشار اللغة العربية . غير ان ذلك ليس كافيا لاثبات انه لولا الاسلام لما تاتى للغة العربية ان تنتشر في العالم وانه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام ، للاسباب التالية :

ا ــ انتشر الاسلام اثناء حركة الفتوح على اقطار كثيرة اصبحت الآن خارج الحظيرة العربية : مثل الاندلس ، ايران ، افغانستان ، تركستان ، السند (الباكستان) . لكننا نشاهد الآن انها اصبحت بعيدة من العروبة لغة اللهم الا بقاء بعض التأثيرات اللغوية التي لا نزال نشاهدها في لغة سكانها الاصليين ، وذلك في نفس الوقت الذي بقيت فيه محافظة على اسلامها باستثناء الاندلس . والسؤال الذي يطرح في هذه المناسبة : لو ان الفتح العربي والوجود العربي بقيا مستمرين فيها الم يكن ممكنا ان تبقى عروبتها وطيدة ، وتصبح اللغة العربية لغتها الصميمة كما جرى بالنسبة للمغرب العربي ومصر وبلاد الشام والعراق ؟ ــ ليس من شك في ذلك اذن . الا نستطيع ان نستنتج من ذلك ان بقاء سلطان العرب بما يتبعه من حركات استيطان للقبائل العربية في هذه الربوع هو الكفيل بدوام عروبة هذه الاقطار ؟

ب ــ سؤال آخر : لو ان الاسلام لم يكن بين الحوافز الاخرى التي دفعت العرب الى حركة الفتوح، او بتعبير آخر لو كان هناك حافز فكري آخر غير الاسلام قد رافق الاسباب التي دعت اليها ، واستقر العرب بنتيجة ذلك في الاقطار السالفة الذكر المفتوحة وغيرها ، الم يكن من الممكن ان تبقى اللغة العربية هي لغة سكانها ؟ ان الامثلة الشبيهة بذلك متوفرة بالنسبة الى الممالك الاوربية كفرنسا التي فتحها الافرنج فاصبحت الفرنجية اللغة (اي فرنسية) ، وانجلترا التي فتحها الانكلوسكسون فاصبحت لغتها انجليزية ، وامريكا الشمالية التي استوطنها الانجليز اثر حركة توسع استعماري فاصبحت لغتها انكليزية ، مع ان الداعي الى فتح هذه الممالك لم يكن هو نشر الدين .

ج ــ وهناك امثلة كثيرة اخرى في التاريخ القديم والوسيط والحديث تثبت ان انتقال قبائل برمتها ، او جزء كبير من شعب ما ، من وطنه الى وطن آخر ، وتغلب نسبته البشرية على نسبة سكان البلاد المستوطنة ، يكون عاملا من عوامل طبع المنطقة المحتلة بلغة الشعب القادم ، لاسيما اذا كانت لغته تمتاز بالاصالة والحيوية والتفوق على لغة السكان الاصليين ــ كما هو شأن اللغة العربية بالنسبة للغات المناطق التي احتلها العرب .

د ــ وقد يكون النشاط التجاري الصرف من نشر لغة القائمين به ، مثال ذلك تغلب لغة الآراميين في سوريا على لغات بلاد الشام المجاورة لها بسبب نشاط تجارتهم حتى اصبحت اللغة الآرامية لغة عامة في المراسلات التجارية وغيرها في جميع الممالك المجاورة لمملكة الآراميين في التاريخ القديم .

وهناك امثلة من الواقع العربي تثبت ان انتشار الاسلام غير كاف لوحده لانتشار اللغة العربية من ذلك :

ا ــ من الواضح ان عروبة المغرب العربي لم تكتمل ــ اثر حركة الفتوح العربية الاسلامية ، بالرغم من اعتناق معظم اهله للاسلام طول اربعة قرون تقريبا ــ الا بعد هجرة قبيلتي بني سليم وبني هلال العربيتين من المشرق العربي الى المغرب واستيطانهما ربوعه في القرن الحادي عشر الميلادي .

ب ــ ومع هذا لا نزال نشاهد في المغرب العربي هذه الظاهرة : ان العنصر البربري في شمالي افريقية العربية يكثر عدده كلما اتجهنا قربا من برقة الى مدينة مراكش وجنوبا من الساحل الى الصحراء ــ اي كلما ابتعدنا عن المراكز العربية ــ وان العنصر البربري في مراكش يبلغ قرابة ثلث السكان ، وهو يكثر عادة في الجبال ومناطق الصحراء وما يجاورها ، وهي المناطق البعيدة عن المحيط العربي الصرف ، ويقل تمييزه في المدن حيث امتزج بالسكان العرب امتزاجا تاما اقرب ما يكون الى الانصهار . فاللغة البربرية لا تزال حية ، اذ لا يزال هناك من يتكلمها لوحدها و من يتكلمها الى جانب العربية ، وربما يكون هناك من البربر نسبة تتراوح بين 10 ــ 14 ٪ تتكلم البربرية والعربية معا، ونسبة تتراوح بين 10 ــ 20 ٪ لا تتكلم سوى اللغة العربية (بناء على احصاء قديم وقد تكون النسبة اقل من ذلك الآن)

كما اننا نشاهد في الجزائر جزرا بربرية ، الا ان افرادها مزدوجو اللغة حيث يتكلمون البربرية والعربية . والذي تجدر ملاحظته أن من يسكن منهم غربي الجزائر شديدو التعرب لسهولة المواصلات مع الاماكن التي يقطنها العرب . مما يستنتج منه أن زيادة الاحتكاك بين البربر والعرب هو العامل الحاسم في تعريبهم مع انهم مسلمون منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا . واذا عدنا الى التاريخ نجد ان فرص

الاحتكاك بين هذين الشعبين كانت من الامور التي ساعدت على الاستعراب مثل اشتراكهم في الحملات كحملة طارق بن زياد على الاندلس وما تبعها من حملات، واستيطان العرب والبربر معا في الاندلس .

ونلاحظ الامر نفسه بالنسبة للاكراد في العراق وسورية ، حيث نجد ان سكان المدن منهم منصهرون مع العنصر العربي وتكاد لا تفرق واحدا من العنصرين عن الآخر كما هو الامر في دمشق ، بينما نرى ان سكان الجبال والقرى النائية الواقعة على الحدود التركية والايرانية لا يزالون متمسكين بلغتهم، ولا يعرف العربية الى جانبها سوى القلة المثقفة منهم مع انهم ايضا مسلمون .

* * *

اما من حيث **ان الوعي الاسلامي والوازع الديني** يقويان ويضعفان تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف او ان العكس بالعكس :

فاعتقادي ـ بحسب ملاحظاتي ـ ان ذلك غير وارد بتاتا ، ولا صلة سببية بين الوازع الديني ولغة الضاد .

ومن حيث المكانة التي يجب ان تحتلها اللغة العربية في بلدنا بالنسبة للغات الاجنبية ، فمما لا شك فيه ان المكانة الاولى يجب ان تحتلها اللغة العربية بالنسبة للغات الاجنبية . وان كان علينا ان نولي اهتماما باللغات الاجنبية فلاجل الاستفادة من تعلمها في اقتباس العلم والتكنيك من الغرب اي دفع طلابنا ومثقفينا الى تعلمها واتقانها ليسهل عليهم متابعة دراساتهم العلمية في بلاد الغرب والاطلاع على المراجع والمؤلفات الاجنبية بكل سهولة ، حتى نتمكن من الاستفادة والافادة .